بسم الله الرحمن الرحيم

التوافق بين المسلمين أصل الدّين، والاختلاف بينهم أول الفساد ورأس الزّلل، وكما تجب الموافقة في الدين والعقيدة تجب الموافقة في الرأي والعزيمة[1]، وما خطرٌ أشد على الأمة وأهتك لسترها وأنكى في قوتها وأعظم ثغرة لعدوها من اختلاف كلمتها وتفرق صفها. ويكفي في بيان خطرها وضررها أن الله جعلها من جنس العذاب والعقوبات التي ينزلها بالقوم الظالمين، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

والمتأمل في نصوص الشريعة وسيرة النبي ﷺ يجد التشريعات المتوافرة والتدابير المتظافرة التي تمنع من ولوج هذا الخطر على الأمة، كما تقدم بيان ذلك، وما ذاك إلا للمفاسد العظيمة التي تهدد كيان الأمة الإسلامية من التفرق والاختلاف، وإليك أيها القارئ الكريم بيان شيء من ذلك:

• أولًا: الفشل والهزيمة

يقول الله تعالى مُنبِّهًا إلى أعظم مخاطر تفرق الكلمة: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ [الأنفال: ٤٦]، أي: لا تنازعوا وتخصموا وتختلفوا، فإن ذلك يؤدي بكم إلى الفشل والضعف، وإلى ذهاب دولتكم، وهوان كلمتكم، وظهور عدوكم عليكم[2]. ولذلك لما اختلف بعض المسلمين يوم أحد فكان منهم من يرى لزوم أماكنهم على جبل الرماة حيث أمرهم النبي ﷺ بذلك، ومنهم من يرى النزول مع الناس لجمع الغنائم انقلب حالهم من نصر إلى هزيمة، وتفرقت قوتهم وانقطعت حيلتهم في أن يعيدوا ضبط القتال في الميدان، كما قال تعالى في سورة آل عمران في بيان المدخل الذي تسبب للمسلمين بالهزيمة يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وإنما كان التنازع مفضيًا إلى الفشل؛ لأنه يثير التغاضب، ويزيل التعاون بين القوم، ويُحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتّقاء بعضهم بعضًا، وتوقُّع عدم إلفاء النصير عند مآزق القتال، فيصرف الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكن منهم العدو[3].

ولذلك لما دخل المستعمرون معظم البلاد العربية الإسلامية كان أول عمل باشروه هو تجزئة الأمة العربية ذات الأكثرية الإسلامية إلى دويلات صغيرة، وإقامة الحدود والحواجز المصطنعة بينها، والعمل على غرس التباينات في المصالح الاقتصادية والسياسية والثقافية، وفي العرقيات والعصبيات القبلية، إضافة إلى إيجاد التنافر بين الكتل الطائفية. يقول «لورانس براون» أحد زعماء المنصرين في كتابه «الإسلام والإرساليات»: «إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرًا، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضًا، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير»[4].

والفشل الحاصل بتفرق الكلمة واقع في أي اجتماع للمسلمين في عمومهم وخصوصهم، فالأسرة المتفرقة الكلمة لا يستقيم لها حال ما دامت لا تجتمع على رأي واحد، فالزوجان يتفرد كل منهما بقراره، والأولاد ينقسم ولاؤهم لأحد الفريقين، فتضطرب تربيتهم وتضيع قيَمُهم. وكذلك المؤسسة المتفرقة الكلمة التي لا تنتظم فيها السلطات ولا تتحدد فيها الصلاحيات ولا يلتزم أفرادها بالنظام، أي مشروع ستقيمه إذا لم يشترك الجميع فيه؟ وأي ريادة ستحققها في مجالها إذا كان أفرادها تشتت جهودهم يمنة ويسرة؟ وكذلك الحال في الوزارات والبرلمانات ومجالس الشورى حتى تصل إلى الأمة العظيمة المتكونة من الدول والجمهوريات.

• ثانيًا: ذهاب هيبة المسلمين وتسلط الأعداء عليهم

أشار القرآن إلى هذه المفسدة العظيمة في آية الأنفال نفسها، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فإن العدو إذا رأى تنازع المسلمين وتفرق كلمتهم ذهبت هيبتهم من صدور عدوهم، حتى تعود الأمة أعدادًا بلا عدة، وأرقامًا بلا معنى، أي إلى الحالة الغثائية التي لا تحافظ على موجود ولا تلوي على مطلوب، فتتداعى الأكلة إلى قصعة الأمة، فيطمع فيها كل قوي وضعيف، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

وقد نبه ﷺ إلى أكبر نتائج الاختلاف الناتج عن التحاسد وإيقاع العداوة بين الناس، فقال ﷺ: «**ألا أخبِرُكم بأفضَلَ من درجةِ الصِّيامِ والصَّلاةِ والصَّدَقةِ؟**» قالوا: بَلَى يا رسولَ الله. قال: «**إصلاحُ ذاتِ البَينِ، وفسادُ ذات البين الحالِقَة**»[5]. ومعنى الحالقة: أنها تحلق الدين، فقد روي عن النبي ﷺ ، قال: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ: هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**»[6].

لقد عُرف الخوارج عبر التاريخ بقوة العزيمة وشدة البطش، وعظيم الإخلاص لأفكارهم والتفاني لها، لكن مع ذلك كان يكثر بينهم الخلاف والنزاع لأتفه الأسباب، وكان هذا من عوامل هزائمهم المتكررة، وقد فطن لذلك المهلب بن أبي صفرة ـ الذي كان ترسًا للمسلمين منهم ـ فكان يبعث إليهم من يبث الخلاف بينهم لتفريقهم وإضعافهم، فيُكفى مؤنة حربهم وقتالهم[7].

وما استعمرت بلاد المسلمين إلا بعد أن سقطت مهابتهم من قلوب أعدائهم، والأندلس خير شاهد على ذلك، فما إن دبت الفرقة بين ولاة الأقاليم فيها حتى بدأ العدو الإسباني يتقدم في أراضيهم ويغري الأخ على أخيه ثم ينقض عليهما ويأخذ أرضهما.

---

(١) تفسير القشيري (٦٢٩/١).

(٢) التفسير الوسيط (١١٣/٦).

(٣) التحرير والتنوير (٣١/١٠).

(٤) أجنحة المكر الثلاثة (٣١٥).

(٥) رواه أبو داود (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩)، وأحمد (٢٧٥٠٨)، وصححه ابن حبان (٥٠٩٢) وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٦) شرح السنة للبغوي (١١٧/١٣). والحديث أخرجه أحمد (١٤٣٠).

(٧) انظر: شرح نهج البلاغة: ٤٩/٢، والكامل للمبرد: ٢٧٧/٢ ـ ٢٧٩، ورغبة الأمل للمرصفي: ٩١/٨ ـ ٩٢.

ولما ضعفت الدولة العثمانية وسقطت خلافتها كان أول ما فعله المتآمرون عليها هو تقطيع أجزائها وتفريق اجتماعها؛ لأنهم يعلمون أن قوتها في اجتماع كيانها، فجاء مؤتمر سايكس بيكو والذي وزع أراضي الدولة العثمانية بين الغرب والشرق، يُقطع هؤلاء قطعة وهؤلاء أخرى؛ من أجل تحطيم وحدة المسلمين، وتجزئتهم إلى أجزاء متفرقة كثيرة؛ لأن هذه الخلافة تمثل الحزام الذي يجمع المسلمين في شتى أقطار الأرض، أو الرمز السياسي الذي يجعلهم يلتقون التقاءً مَّا تحت راية سياسية واحدة، وإن وصل بها الضعف إلى أن غدا رمزًا ليس له أي سلطان فعلي.

وقبل ذلك في زمن الخلافة العباسية انقسمت الأمة إلى ثلاث دول، دولة العبيديين التي تسلطت في المغرب العربي ومصر، ودولة الأمويين في الأندلس، والدولة العباسية في الشام والعراق والحجاز، فتفرقت بهذه الخلافات كلمة المسلمين، وانحطت رتبة الخلافة الى وظيفة ملكية، فسقطت هيبتها من النفوس، فتفرق العالم الإسلامي الى دويلات[٨].

- **ثالثًا: انتزاع البركة من العمل**

فالبركة تذهب مع الاختلاف والمشاحنة، تصديقًا لقوله ﷺ: «يد الله مع الجماعة»[٩]. وقد ذكر العلماء أن الاختلاف والمخاصمة كانتا سببًا في رفع تحديد ليلة القدر، كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي أُنْبِئْتُ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ فَخَرَجْتُ كَيْمَا أُحَدِّثَكُمْ بِهَا أَوْ أُخْبِرَكُمْ بِهَا فَتَلَاحَى رَجُلَانِ يَحْتَقَّانِ مَعَهُمَا الشَّيْطَانُ فَأُنْسِيتُهَا**»[١٠].

ولما بعث النبي ﷺ معاذًا وأبا موسى لدعوة الناس وتعليمهم في اليمن كان من أول ما أوصاهم به: «يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا»[١١].

- **رابعًا: الانشغال عن المهام الكبرى**

فالاختلاف يشغل الناس ببعضهم، ويصرف الأمة عن تحقيق غاياتها الكبرى التي حمَّلها الله إياها من تبليغ الرسالة والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر الدين في بقاع الأرض والتصدي لمكايد الأعداء في محاربة الإسلام.

ولذلك أعقب الله تعالى الأمر بالاعتصام والاتحاد في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ بقوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٣ ـ ١٠٤]؛ إشارةً إلى أن الانشغال بالمهام الكبرى يقوي روابط الإخاء ويزيد من دوافع الاتفاق والاجتماع.

ومما يدل على ذلك: أن الفتوحات توقفت في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بسبب الانشغال بقتال معاوية في الشام والخوارج في العراق، فلم يتفرغ لتوسعة الدولة الإسلامية ونشر الإسلام في هذه الفترة بسبب هذا العارض الذي حدث في زمنه.

وكذلك يعطل التفرق والاختلاف الأفكار عن التطوير والتقدم، ويشغلها بمناكفة الخصوم، وتفنيد حججهم وأدلتهم. وأنت تجد المكتبات مليئة بالرسائل والأجزاء المؤلفة في مسألة من المسائل الجزئية العلمية أو العملية، وحشد الأدلة في ترجيح أحد القولين والرد على الآخر، مما يشعرك بأن القول الآخر جدير بالدحض والطرح وأن القول الراجح لا يجوز العمل بغيره. والمفترض في مثل هذا أن لا يكون هو الشغل الشاغل والعمل الرئيس في حياة العلماء وطلاب العلم، فالاختلاف سنة كونية، وإنما يكون الرد منهم بقدر ما يتبين به الخطأ في الأمور القطعية، أما في مسائل الاجتهاد التي يكون الخلاف فيها محتملًا فلا حاجة للتأليف وعقد مجالس المناظرة في تحديد الرأي الراجح.

---

(٨) الاعتصام بالإسلام ص(٤١).

(٩) أخرجه الترمذي (٢١٦٦).

(١٠) رواه مسلم (١١٦٧).

(١١) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (٣٠٣٨).

مخاطر التفرق

إعداد : د. عبد القادر إدريس
بإشراف اللجنة العلمية العليا

١١ ذي القعدة ١٤٤٠هـ
١٤ تموز ٢٠١٩م